إلى سلة المهملات

ظلال حسن فتحي

إلى سلة المهملات

في الساعة التي يتوقف فيها الإنسان عن الكذب على نفسه، لا يحدث شيء يستحق أن تكتبه الصحف

لا تنشق السماء ،لا تسقط المدنوولا يرن هاتف مجهول ليقول: مبارك، لقد نجوت.

كل ما يحدث أن الأشياء تبدأ بالنظر إليك بطريقة مختلفة.

كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل منحت الليل ثلاث ساعات، أو ربما الثالثة بعد عمرٍ كامل لم أعد أثق بالساعات كثيرًا؛ فهي أيضًا تكذب، تدور في المكان نفسه ثم تقنعنا أننا نتقدم كانت المدينة نائمة، إلا من مصابيح معلقة فوق الشوارع كأنها أسئلة صفراء لم تجد جوابًا. السيارات صامتة. الأشجار واقفة في أماكنها منذ سنوات، كأن أحدًا أمرها ألا تغادر. حتى الهواء بدا موظفًا في هذه المدينة؛ يدخل من النوافذ ويخرج منها دون أن يسأل أحدًا عن سبب وجوده أما أنا، فكنت أجلس أمام سلة المهملات.

سلة سوداء .

صغيرة.

هادئة.

لكنها بدت لي في تلك الليلة أوسع من العالم نظرت إليها طويلًا، ثم شعرت بأنها تنظر إليّ.

ضحكت.

قلت:«لا تنظري إليّ هكذا.»

لم تجب، طبعًا،سلال المهملات لا تتكلم.

لكنني في تلك الليلة لم أكن متأكدة من أي شيء.

كانت الغرفة باردة، والطاولة ممتلئة بأشياء صغيرة. ورقة. رسالة. صورة. كلمة لم تعد تتذكر من قالها. وذاكرة لا تعرف لماذا بقيت أشياء تبدو بلا وزن.

لكن الإنسان يستطيع أن يحمل جبلًا بسهولة أكبر من حمل جملة واحدة قالها له شخصٌ في الوقت الخطأ.

مددت يدي إلى أول شيء.

كان قلبي أو ما اعتقدت أنه قلبي نظرت إليه كما ينظر المرء إلى قطعة أثاث قديمة ورثها عن عائلة لا يحبها. كان مكسورًا، نعم. لكنه لم يكن بريئًا تمامًا. فقد تعبت من معاملته كضحية مقدسة.

قلت له:«كم مرةً سنعيد القصة نفسها؟» لم يجب،كان صامتًا كعادته،

فوضعت بجانبه الكلمات المؤذية، وبعض الوجوه التي لم تعد أذكر أسماءها، وشخصًا سرق شيئًا مني ولم أعرف حتى الآن ما هو، وعقلًا ظل سنواتٍ يركض في الاتجاه الخطأ ثم يلوم الطريق كل ذلك وضعته أمام سلة المهملات،وفجأة ضحكت، لم أكن أعرف أن الإنسان يستطيع أن يضحك وهو يفرغ حياته.

ربما لأنني اكتشفت أنني كنت أعيش في متحف.

كل شيء ممنوع من اللمس كل ألم محفوظ بعناية،كل خذلان موضوع في مكانه الصحيح.

كل ذكرى تحمل بطاقة صغيرة تقول:

يرجى عدم النسيان،كنت أمينةً جدًا على أوجاعي،أكثر مما كنت أمينة على نفسي كنت أحتفظ بالكلمات التي جرحتني، كأنني أخشى أن ينساها أصحابها فأضطر إلى تذكيرهم بما

فعلوه بي. احتفظت بالوجوه، بالمواقف، بالأبواب التي أغلقت في وجهي، بالأماكن التي دخلتها وأنا أرتدي نفسي بطريقة لا تشبهني.

كنت أجمع كل شيء ،ثم أضعه داخل رأسي ،ثم أغلق الباب،

ثم أقول:أنا بخير

وجدت ورقة قديمة فوق الطاولة،كانت تحمل هذه الجملة،أنا بخير.

نظرت إليها طويلًا،ثم مزقتها،وقلت:«كذبت»

لم أكن بخير،كنت فقط أجيد الوقوف،وهناك فرق كبير بين أن تكون واقفًا وبين أن تكون حيًا،مزقت الورقة الثانية ثم الثالثة.

ثم الرابعة،وبدأت الأوراق تسقط داخل السلة كطيور فقدت قدرتها على الطيران.

لمن كان هذا الحزن؟

لمن هذا الخوف؟

لمن كل هذا الانتظار؟

بدأت أبحث عن أصحاب الأشياء ،ثم اكتشفت أنهم جميعًا أنا،أنا التي حملت الكلمات أكثر مما حملها أصحابها،أنا التي أعطيت الخذلان غرفةً كاملة،أنا التي جعلت من الذكرى عنوانًا دائمًا،أنا التي سمحت للأشخاص الذين مروا بي أن يصبحوا سكانًا داخليين، رغم أنهم غادروا حياتي منذ زمن.

وقفت.

ذهبت إلى المرآة.

كان وجهي هناك.

لكنه لم يكن وجهي.

حدقت فيه طويلًا.

ثم قلت:«لستُ أنا.»

لم تتحرك المرآة المرآة لا تناقش وهذا أكثر ما يزعجنا فيها هي لا تحاول أن تقنعك بأنك جميل، أو قوي، أو بخير تعيد إليك الحقيقة كما تقف أمامها.

قلت مرةً أخرى:«لستُ أنا» من هذه المرأة؟ من هذه التي تعرف كيف ترضي الجميع، لكنها لا تعرف ماذا تريد؟

من هذه التي تحفظ أسماء الأماكن التي لم تحبها، وتنسى الطريق إلى المكان الذي يشبهها؟

من هذه التي غيّرت صوتها كي لا تبدو مزعجة؟وعدّلت أحلامها كي لا تكون كثيرة؟

وصغّرت نفسها كي تتسع لها الغرف الضيقة؟

من هذه التي أمضت عمرًا كاملًا تحاول أن تكون مناسبة لكل شيء؟

حتى أصبحت غير مناسبة لنفسها؟جلست على الأرض

وشعرت فجأة أن الغرفة أصبحت أكبر مني،الجدران بعيدة،النافذة بعيدة ،المرآة بعيدة حتى يداي بدتا كأنهما تخصان امرأةً أخرى.

وهنا بدأ الاغتراب ليس حين تغادر مكانك بل حين تجلس داخل نفسك ولا تجد أحدًا،تذكرت كم مرة حاولت أن أنتمي،دخلت أماكن لا تشبهني،وقلت كلمات لا تشبه صوتي،وضحكت في اللحظة التي كان داخلي يريد فيها أن يصمت.

وصمتُّ حين كان ينبغي أن أقول:لا

ارتديت وجوهًا كثيرة،وجه الفتاة القوية،وجه التي لا تتأثر،وجه التي تسامح وجه التي لا تحتاج أحدًا وجه التي تستطيع الرحيل وجه التي تستطيع البقاء،وكنت أبدّل وجهي كما يبدّل الممثل قناعه خلف الستارة.

لكن المشكلة أن المسرحية لم تنتهِ،ونسيت في النهاية أي وجهٍ دخلت به إلى الحياة.

وهنا أدركت شيئًا مخيفًا الإنسان لا يفقد نفسه دفعة واحدة.

لا نحن نفقد أنفسنا بالتقسيط.

قليلًا كل يوم.

مرةً حين نسكت عن شيء يؤلمنا ومرةً حين نقبل ما لا يشبهنا ومرةً حين نحب شخصًا أكثر مما نحب أنفسنا ومرةً حين نؤجل أحلامنا كي لا نزعج أحدًا ومرةً حين نقنع أنفسنا أن المكان الخطأ هو قدرنا وهكذا، يومًا بعد يوم، نصبح نسخةً قابلة للاستعمال.

نسخةً مناسبة.

نسخةً مهذبة.

نسخةً لا تزعج أحدًا.

ثم نستيقظ فجأة ونسأل: من أنا؟ ولا يجيب أحد

فتحت النافذة.دخل هواء الليل.كان باردًا.لكنه لم يعتذر.

وهذا أعجبني،لم يحاول أن يدفئني،لم يقل إن كل شيء سيكون بخير.

دخل كما هو صادقًا في برودته.

وفكرت:ربما هذه هي الحرية أن يأتيك الشيء كما هو وألا يطلب منك أن تتظاهر بأنه شيء آخر نظرت إلى الشارع مدينة كاملة تتحرك نحو صباح جديد.

لكنني شعرت أن الجميع يمثل الرجل الذي يعبر الشارع ربما لا يعرف إلى أين يذهب السيارة التي تمر ربما تهرب من شيء المصباح الذي يضيء الطريق ربما يتمنى لو ينطفئ والشجرة التي لم تغادر مكانها منذ سنوات ربما كانت أكثر حرية منا جميعًا.

فكرت:ربما لم أكن أعيش حياتي أصلًا كنت أعيش في توقعات الآخرين في الكلمات التي قالوها عني في الخوف الذي تركوه في الأماكن التي اختاروها حتى أصبحت حياتي نسخة طويلة من أصوات ليست صوتي.

قلت:ربما لم تكن المشكلة في الطريق،سكتُّ وربما لم تكن في الأشخاص

سكتُّ أكثر،وربما لم تكن في الزمن،ثم نظرت إلى المرآة.

وقلت:ربما أنا التي وصلت متأخرة إلى الحياة التي تشبهني.

لكن الجملة بدت غريبة كأنها ليست لي

توقفت ثم جاءت جملة أخرى أبطأ وأكثر قسوة ربما لم أصل متأخرة ربما كنت أبحث في المكان الخطأ عدت إلى الطاولة كانت سلة المهملات ممتلئة لكن شيئًا واحدًا بقي ورقة بيضاء نظرت إليها شعرت للحظة أنها أخطر من كل الأوراق السابقة.

البياض مسؤولية.

فالصفحات الممتلئة تستطيع أن تلوم الماضي أما الورقة البيضاء، فلا أحد فيها غيرك.

جلست أمامها،أمسكت القلم،ثم تركته،لم أكتب شيئًا،هذه المرة لم أكن أريد التخلص من شيء كنت أريد أن أترك مساحة،مساحة لشيء لم أعرفه بعد لحياة لا أضطر فيها إلى

شرح نفسي باستمرار لأشخاص لا يجعلونني أشعر أن وجودي يحتاج إلى تبريرلمكان لا أحتاج فيه إلى تغيير ملامحي كي أُقبل لصوتي الحقيقي حتى لو كان مرتبكًا في البداية.

نظرت إلى سلة المهملات.

كانت ممتلئة بكل ما كنت أظن أنه أنا الخوف الخذلان الانتظار الكلمات المؤذية والنسخة التي صنعتها من نفسي كي يحبني الآخرون.

كلها هناك في سلة واحدة فضحكت لأنني فهمت المفارقة أخيرًا كنت أخاف طوال حياتي أن أصبح بلا شيء ولم أعرف أن «لا شيء» قد يكون أول مساحة حقيقية لأصبح أنا.

في الصباح، لم تتغير المدينة الأشجار في أماكنها الشوارع نفسها الناس أنفسهم الضجيج نفسه حتى المرآة لم تتغيرلكن شيئًا ما في داخلي كان قد تحرك ليس لأنني وجدت نفسي بل لأنني توقفت عن البحث عنها في الآخرين.

وهذه ربما هي البداية.

فالإنسان لا يجد نفسه دائمًا حين يعرف من يكون أحيانًا يجدها حين يعرف من لم يعد يريد أن يكونه وقفت أمام المرآة مرة أخيرة.

قلت:

«لستُ أنا تلك التي اعتادت أن تتألم كي تثبت أنها تحب.»

ثم صمتُّ ولستُ أنا تلك التي تبقى في الأماكن التي تطرد روحها

ثم صمتُّ أكثرولستُ أنا تلك التي تحمل الأشخاص داخلها حتى بعد أن يخرجوا من حياتها.

اقتربت من المرآة ولستُ أنا تلك التي تغيّر جلدها كلما شعرت أنها لا تشبه المكان ثم ابتسمت لأول مرة، لم أكن متأكدة ممن أكون لكنني كنت متأكدة من شيء واحد أنني لم أعد تلك المرأة.

قلت:أنا التي بقيت بعد كل هذا أخذت سلة المهملات رفعتها ثم تراجعت لم أرمها تركتها مكانها لأنني فهمت شيئًا آخر ليس مطلوبًا مني أن أنكر الماضي حتى أتعافى منه.

لا أحتاج إلى حرق الذاكرة ولا إلى كراهية الذين أوجعوني ولا إلى إقناع نفسي بأن شيئًا لم يحدث يكفيني أن أتوقف عن إعطائهم غرفةً في داخلي

يكفيني أن أقول:

حدث وأوجعني وغيّرني لكنّه لم يعد يملكني وهذه هي المسافة الغريبة بين الجرح والشفاءليست نسيانًاوليست انتقامًا بل أن تتذكر دون أن تسقط قبل أن أغادر الغرفة، عدت إلى الورقة البيضاء.

كتبت:إلى سلة المهملات...

ثم توقفت وأكملت:

كل ما أوجعني، كل ما سرق مني سلامي، كل كلمة بقيت في داخلي أكثر مما ينبغي، وكل شخص ظننته أمانًا فكان أذى.

ثم كتبت:

سأرميها جميعًا، لا لأنني نسيت، بل لأنني تعبت من حمل ما لا يستحق أن أحمله.

وتحتها كتبت هذه المرة، لن أنقذ شيئًا توقفت ونظرت إلى الجملة ربما كنت طوال حياتي أحاول إنقاذ كل شيء (العلاقات،الأشخاص،الذكريات،الحب) حتى الأماكن التي لم تعد

تتسع لي كنت أمد يدي إلى كل شيء يغرق.حتى بدأت أنا بالغرق لكن هذه المرة لن أنقذ شيئًا.سأنقذ نفسي فقط خرجت من الغرفة كان الصباح قد بدأ وفي الخارج، كانت المدينة تمارس حياتها القديمة أما أنا، فلم أعد متأكدة إن كنت أبحث عن مكان يشبهني.....

توقفت عند الباب.

ثم سألت نفسي:

كيف أصنع مكانًا يشبهني أينما كنت؟

لم يجب أحد.

وهذه المرة لم أكن بحاجة إلى جواب.

مشيت.

لا أعرف إلى أين وكان الطريق طويلًا.

وربما لم يكن طريقًا أصلًا ربما كان مجرد مساحة بين امرأةٍ قديمة وامرأة لم تولد بعد.

لكنني كنت أعرف شيئًا واحدًا.

هذه المرة...

لم أكن أبحث عن أحد.كنت أبحث عني نستخي التي غادرتني جثت جسدي دون روح ثقيلة جدا وربما كانت تلك أول مرة لا أسير فيها نحو مكان.

بل أخرج من مكان.

من نسخة قديمة.من غرفة ضيقة.من مرآة لم تعد تعرفني ومن حياةٍ كنت أعيشها بالنيابة.

مشيت.وكانت المدينة خلفي.وكانت سلة المهملات في الغرفة.

ممتلئة،هادئة لا اعلم لا اعلم ولا اريد ان اعلم.

كأنها تعرف أن بعض الأشياء لا نرميها خارجنا بل نتوقف فقط عن حملها.

إلى القارئ

لا تجعل حياتك مستودعًا لكل ما كسرك.

ليس كل ما حدث لك يستحق أن يأخذ معك مقعدًا في المستقبل بعض الأشياء لا تحتاج إلى إصلاح تحتاج إلى مغادرة.

وبعض الأشخاص لا تحتاج إلى مسامحتهم كي تتحرر منهم يكفي أن تتوقف عن منحهم سلطة على بقية عمرك وأحيانًا، أكثر ما تحتاج إلى التخلص منه ليس شخصًا ولا مكانًا ولا ذكرى وان مهما حصل فان في بعض الاحيان الذكريات انقاذ للروح احب الامس مهما حدث فيه.

بل النسخة التي صنعتها من نفسك كي تناسب عالمًا لم يكن يشبهك أصلًا.

سؤال

لو وُضعت أمامك اليوم سلة مهملات لا تتسع إلا لشيء واحد من حياتك، ماذا سترمي؟

شخصًا؟ ذكرى؟ كلمة؟ خوفًا؟ أم النسخة القديمة منك؟ وهل أنت فعلًا في المكان الخطأ؟

أم أنك أمضيت وقتًا طويلًا تحاول أن تصبح الشخص الصحيح في مكانٍ لا يشبهك؟

ظلال حسن فتحي | العراق